

التي جئنا لم

تمل ... انها السالكون »

في الجملة المستديرة ، التي تركيبة منها القصيدة الاولى في المجموعة « نحن لم نحتكم » ، محاولة للوصول الى جملة شعرية مفتوحة ، فالفواصل التي تقيها الغافية ، هي استدارات داخل جملة واحدة ، تحمل احتمالات عديدة لوقف واحد . فالتشبيه البسيط الذي يبدو من خلال الاكثار من ادوات التشبيه ، كالبداية ، كالمتهنى ، هو تشبيه تجريدي ، لا يأخذ مدلوله الا داخل حركة العناصر ، فيمزج العنصر الانساني بالطبيعية ، البنائى بالعشبي ، ليؤثر الى الطريق التي لم تمل « انها السالكون » . هذه العناصر المتعددة حين تمزج تؤدي في بساطتها الى اكثر من امكانية دلالة شعرية . فدلالة الشعر هي في ما يقوله وليس في معنى ما يقوله . هذا الافتراض ، لا يتحقق الا داخل استدارة الحلم في جسد العناصر الواقعية ، وحين يختار سعدي يوسف بساطة اللحظة الانسانية ، يبحث عن اعماقها ، فلا يبقى اسمير الخط الواحد ، يصبح الواثق اشارات لا تنتهي داخل دلالة اللغة الشعرية التي تعيد تنظيم الدلالات بوصفها احتمالات فعل .

اما حين تأتي الغنائية المباشرة ، كما في قصيدة « في تلك الايام » ، فانها تأتي داخل اتباع متوتر ، يلتقط ادق التفاصيل ويمزجها ببعضها ، ثم يزاوج بين اكثر من مصطلح ايقاعي واحد ، يعود الى اشكال الشعر الشعبي ليستمر منها ابتاعاتها ، ويصل بشكل مباشر الى الرسالة السياسية التي تقع خلف القصيدة :

« اولم تتطوع في مدريد ، اما قاتلت وراء مداريس

الثورة في بتروغراد ، ألم تقتل في اشراب المنطق » .

لكن لغة الرسالة السياسية ، لا تستطع في برودة الشعر المباشر ، تبقى في غنائيتها طموحة للوصول الى توفير جميع تفاصيلها ، فتعي التفاصيل ونحن ننسأها ، وتصبح اللحظة الشعرية ، لحظة حركة كأنها حلم ، يستجيب عناصر الواقع بوعي ويعيد سكبها من جديد .

ليبدو وكأنه تطلع من الحدث اليومي لم يتم الشاعر الا بالقطاها . هنا تقع الاضافة الاساسية التي يحتتها هذا الشعر . فهو لا يقع في مأزق «واقعية» الخمسينات ، حين كانت البداية في رحلة التبريد على عمود الشعر بوصفه شكلا . وكانت القصيدة « الواقعية » مجرد التقاط لبعض عناصر الواقع الاجتماعي - السياسي ، وربطها في سياق ايديولوجي مكشوف ، ومحدد الغايات . حيث اللغة حادة الاطراف ولا تحتل اي انحاء ، وحيث عناصر العلاقة الاساسية تأتي من خارج القصيدة . فالعلاقات التي ترسبها القصيدة ، هي مؤشرات على علاقات « الواقع » ، ولا تنفخ تأثيريتها الا داخل لغة سياسية واضحة ، تستعيد الشعار وتعيد صياغته في هاجس تحريضي . هنا تستقيم المعادلة في طرفين واضحين . البداية والنهاية ، الشعر وتلقي الشعر . وتنسحب احتمالات بنية للقصيدة نفسها لتتحول خيطا رفيعا وحادا لا يحتمل التأويل . سعدي يوسف ، يبقى واقعا بالمعنى النقيض لهذه الواقعية البسيطة . انه مليء بالاحتمالات والجدل ، كحركة الواقع ، لا يكررها ، بل ينتقي عناصرها ويعيد صياغتها داخل القصيدة . فتبقى القصيدة شفافة كمناء هادئة ، نعتد للوهلة الاولى انها ليست اكثر من انعكاس للواقع فسي احداثه اليومية . لكننا نكتشف بعد حين عمق الماء الذي يعكس والذي يعيد في حركته صياغة ما يحاول كشفه .

لغة الحلم واشارات الواقع

« تحت جدارية فائق حسن » ، محاولة اخرى لمزج اللغة بالحلم . الدلالة واضحة العناصر ، لا تبحث عن عمق خاص او تعقيدات في التجربة . انها التجربة المباشرة وقد لبست لغة الحلم . هنا تصبح الدلالة احتمالية ، فتتركب عناصرها من اكثر من مصدر واحد ، تكتشف سلسلة من المواقف المتداخلة ، التي هي التعبير عن حركة الحلم داخل الواقع :

« منذ ان كنا صغارا عرفناك ، في وطن ، انت سميتة ...

في رجال تخيرتهم كالبداية ... كالمتهنى ... نحن لم نحتكم ،

والبنادق والعشيب لم تحتكم مرة ، والطريق